صمت المهراجا
أو
ضيعة الهنود

للكاتبة ماري كوريلي
للأستاذ دريني خشبة

كانوا يدعونها « لولى » قبل أن تصبح حرم الكولونل كاود أنسلي ، واسمها الحقيقي هو لورا إيجرتون .. وهي غنية واسعة الثراء ، تملك ضياعاً شاسعة فى انجلترا ، وقصراً منيفاً فى الهند . ولقد تركت شمس الهند سفعاً عجيباً على جبينها وفوق خديها كانت تستعين عليه بالدمام والمساحيق لتجمع فيه حمرة انجلترا وسمرة الهند ، فتكتسب به سحراً وفتنة ، ما دام الجمال قد بخل عليها بطابعه غير المجلوب ... وكانت روحها وثابة خلابة مرحة ، وكانت هي طويلة ممشوقة ، ذات عينين عميقتين ، تختبىء فى أغوارها أبالسة وشياطين ... وكانت تبسم ، فتفتر عن ثناياها البيض اللامعة ، فلا يصعب على محدثها أن يستشف فى القسمات المكوّرة حول فمها أفانين الخبث والدهاء ...

وكان زوجها الكولونل أصغر منها سناً ، ولكن كانت تبدو عليه بداوات تجمله يكبرها بسنوات وسنوات . وكان ذا جسم عظيم هرقلي ،

ماري كوريللي هي مؤلفة قصة أحزان الشيطان وغيرها من القصص الجميلة الرائعة التي تلتقي فيها ثلاث ثقافات عظيمة ، الانجليزية والفرنسية والايطالية ... فماري اسكتلندية بأمها ، إيطالية بأبيها ، فرنسية بتعليمها ، إنجليزية بحياتها ... وكانت ترجو لو تكون موسيقية لو لم يغلب عليها الأدب ، ولو لم ينتزعها كيوبيد من ذراعي أبوللو ... وأقصوصة صمت المهراجا هذه من أروع الأقاصيص القصيرة التي تصور هول الاستعمار في الهند البريطانية

وكان له وجه صارم الملامح ، إلا أنه كان أشبه بوجوه الفلاسفة منه بوجوه الجنود ، ولاسيما إذا جلس وحده فى غرفته المنعزلة ينفث دخان لفافاته التي لا تنتهي ، فيحجب عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، ويوسع دائرة تأملاته ، ويجعلها تشمل الدنيا بأسرها .. فإذا قطعها عليه قادم وثب وثبة الهر في خفة ونشاط ، وبرقت من عينيه بوارق الجذل والسرور . وكان الناس يعجبون كيف رضيت لولى أن تتزوج هذا الكولونل ، ولم يكونوا يعلمون أنها انتظرت الكفء الذي يتقدم إليها فينقذها من هذا العنوس الذي طال حتى أفزعها وأوهى جلدها . فلما تقدم إليها كاود رقص قلبها ، ورضيته على كره أو غير كره ، ورافقته إلى الهند

وقيدته بقيد ثقيل من الذهب ، فاشترت هذا القصر المشيد الذي يهزأ بقصور الأفيال ويسخر بما بنى الراجوات ، ثم حشدت فيه الخدم والحشم بعد إذ أثثته بما تؤثث به بيوت الملوك ... وكان الكولونل يلمس الفارق الكبير بينه وبين زوجته الغنية فلا يجسر أن يؤاخذها فيما يؤاخذ فيه الرجال أزواجهم ، فهي تصادق من تشاء ، وتدعو إلى دارها من تشاء ، وتجلس إلى من تشاء ، وتشركه فى الحفاوة بمن تدعو إذا شاءت ، وتهمله إن لم تشأ ... ولم لا تصنع

كل هذا وهى لا تكلفه قليلاً أو كثيراً مما يكلف الأزواج أزواجهم ، بل تترك له راتبه كله يتصرف فيه تصرف الراشد العاقل ، فيشترى سجائره وينفق عن سعة بلا رقيب ، وله فوق هذا أن يملأ معدته بما تمتلىء به معدات الملوك ، وأن ينحط فى مثل سررهم الناعمة الموضونة ، وأن يخدمه ولدان مخلدون كأمثال اللؤلؤ المكنون ... ! ليس له أن يعترض أسلوب حياتها ، فهو رجل صناعته خارج المنزل ضابط فى جيش الهند ، وفى داخله زوج ليس من مقاليد المنزل فى يده كثير ولا قليل ، اللهم إلا هذه العلاقة الشرعية التى تفرضها السماء ، وتجيء وراء الأشياء كلها فيما بين كلود ولوللى ، وفى حين تأتي أمام الأشياء كلها بين جميع الأزواج ... فهو إذن زوج دُمْية ! وهو كهذه الدُّمى التى تتخذ فى المعارض التجارية لعرض الملابس وأحدث الأزياء ، ولا يهم بعد هذا أنه دمية تتكلم وتأكل وتشرب وتنفث دخان اللفائف

وعرفت لوللى مهراجا الإقليم المجاور فى إحدى سهراتها ، فراعها منه حسن احتفاء الناس به ، ومنافسة بعضهم بعضاً فى التقرب إليه ... وحسبت أول الأمر أنه ملق الجماهير يدفعها كالذباب نحو المهراجا ، ولكنه لم يلبث أن عظم فى عينيها حين سمعت إليه يتحدث بلسان انجليزى مبين ، وحين عرفت أنه تخرج فى إحدى الجامعات الانجليزية بلندن ، وأنه فلكى عظيم من أكبر علماء الفلك ، وأن له فى هذا العلم رسالة قيمة يعرفها علماء بنى جنسها

وكانت تدعو إلى دارها أهل الجاه وذوى المكانة واليسار ممن تجمعهم وإياها الأندية والمراتع ، فدار فى خلدها أن تدعو المهراجا الوجيه اللبق لا ليتناول الشاى فى دارها فحسب ، بل ليقضى أياماً فى قصرها الشاهق ضيفاً كريماً ... ولم ير المهراجا بأساً فى أن يلبى دعوة لوللى ، وأن يضرب لذلك ميعاداً موقوتاً ، وقد أثارت تلبيته الخيلاء فى نفسها ... ولما كان أهل الخيلاء لا يكتفون بأن يحسوا الكبرياء فى أعماقهم ، بل يحاولون بكل وسيلة أن يشعروا الناس بما يمزق أوداجهم من عُجْب وما يسكرهم من تيه ، فقد فكرت لوللى فى أن تدعو رفيقة صباها ادريانا زوجة الكابتن لومارشان ، من رجال جيش الهند أيضاً ، والذى يعسكر بفرقته فى إحدى المدن القريبة. ولم يكن لواحدة من صويحبات لوللى هذا الأثر العميق فى نفسها الذى أحدثته فيها الفتاة العجيبة ادريانا ، ذات العينين السحريتين ، والوجه الصغير الصارم ، والجسم الضامر الناحل ، والشعر الذهبى الجميل ... لقد كانوا يطلقون عليها اسم قصيدة كيتس الرائعة : « الحسناء التى لا تعرف الحنان ! » ، ولله ما كان أصدقهم فى هذا ! فلقد كانت إدريانا صارمة فى علاقاتها بكل من تعرف ، فلا تكاد تعرف أحداً حتى ترغمه على أن يحس أنها قائده الأعلى ، وأنه ينبغى أن يتخذها مَثَله ... وكان صويحباتها يدركن هذا وكن يشهدن لها به عن يد وهن صاغرات . فاذا تكلمت أصغين ، وإن اقترحت شيئاً لم يعارضن ، وإن تحدثن فى مسألة وأبدت رأيها فهو رأى الجميع . وكان ما يزال يتردد فى سمع لوللى وفى قلبها قول ادريانا فى الرجل الذى تؤثر أن يكون زوجها : « إنه هو الرجل الذى يستحق حبها وإجلالها وطاعتها ... فهو بذلك ينبغى أن يكون فذاً فى أخلاقه وفى جثمانه ، حتى ليكفى أن تنظر إليه النظرة فتمنحه

قلبها وعقلها وعبادتها ... » وكانت لولى لهذا السبب تصبو إلى أن تشهد بعينيها إلى أى حد حققت الأيام أحلام صديقتها .. فاعتزمت لذلك أن تدعوها لتقضى أياماً فى قصرها فى نفس الوقت الذى يحل فيه المهراجا ضيفاً عليها ، فهى بذلك تشهدها كيف ينزل فى دارها الملوك والأفيال إخواناً وأخداناً ، ثم ترى ماذا كان من هذه الشخصية الساحرة التى كانت فى صباها تجذب جميع الرفاق وتهيمن عليهم وتخضعهم لآرائها . وكان أكثر ما تصبو إليه لولى هو أن تشهد هذا الزوج العسكرى ، لترى إن كان هو الرجل الذى يستحق أن تمنحه المرأة قلبها وعقلها وعبادتها !

* * *

وبينما كانت لولى تنمق الأزهار فى الغرف ، وتأمر الخدم بتغيير بعض ما نظموا ؛ وبينما كانت تعنى كل العناية بجناح المهراجا الذى حرصت أن يكون بعيداً عن الجناح الذى هيأته لضيفيها الآخرين ، إذا بأدريانا وزوجها يدقان الباب ويقتحمان البهو ، ويتسلمان حقائبهما من الحمالين ...

— مرحباً مرحباً إدريانا ...

— مرحباً لولى العزيزة ، كيف أنت يالورا .. ؟

— أوه ! لورا ... إن أحداً لم يعد يناديني بهذا الاسم الحبيب !

— زوجى ... لومارشان ...

— مرحباً كابتن ...

— مرحباً بك ياصديقة زوجتى ... كم كنت أتوق أنا وإدريانا للقياك !

— أنا سعيدة بكما ... سعيدة ... سعيدة جداً ... أوه إدريانا ... عمر بأكمله منذ افترقنا ... ها أنت ذى ما تزالين جميلة ... عيناك ! أوه ! عيناك يا إدريانا ما تزالان ساحرتين ! وشعرك ما يزال يلقى أضواء الذهب كما كان فى الصبا ... إنك ما تزالين طفلة كما كنت ... ولكنك أيضاً طفلة هائلة ... سأدعو لكما كلود ... كلود ! كلود !

وأقبل كلود ليؤدى وظيفة الزوج ، فقالت لولى : « زوجى الكولونل كلود ... هلم يا كلود ... ها هو أخوك لومارشان ... وها هى صديقتى إدريانا التى طالما حدثتك عنها » ... وهش كلود على غير عادته وبش ، وجلس يحدث الضيفين عن سفرتهما الطويلة ، ويحدث نفسه عن الغادة الصغيرة الفاتنة ذات العينين الساحرتين ، الجالسة أمامه ... ثم عن هذا الحيوان زوجها ، ذى الشاربين الغليظين المتصبين كشاربى القط ، وذى الرقبة المنتفخة كأنها رقبة العجل ... !

وجلسوا هنيهة يتحدثون ... وبدأت لولى تقرأ سطور مأساة مكتئمة فى عينى صديقتها إدريانا تلوح مناظر منها فوق المسرح الشاحب الحزين الذى تموج ستوره فوق جبينها الشاكى ، وفى ثنايا شعرها المسبطر الجميل ... وجاء الشاى فتشقق الحديث حول أكوابه ، وكانت نبرات الأسى ترن فى فم إدريانا ، فما كادوا يفرغون من شايهم حتى نهضت لولى ، ونهضت فى إثرها صديقتها ، وانطلقتا إلى غرفة بعيدة فى الجناح الآخر من القصر ليتحدثا وحدهما وليتحدث زوجاهما فيما يليق بهما ...

— إدريانا ... ألست سعيدة ؟ أعذرينى فى أن أسألك عن وجوم كانت تتعثر فى أذياله كلماتك ...

— والله يا أختاه ... لا ... ولكن ... هذا لا يهم ...

— لا يهم ؟ وكيف ؟

— إى والله ... وله ؟ هل وجد الناس فى هذه الدنيا ليسعدوا ؟ أبداً ! لقد كانت أحلاماً وسرعان ما ذوت ؛ وكانت مُنًى وسرعان ماسقطت كأوراق الخريف ! هذه هى الحياة دائماً إذا ابتسمت وتبرجت فى الربيع ، فلا بد أن تتجرد من غرورها فى الشتاء ... وتلك هى مأساة الكل يا أختاه ... ومع هذا فأنا لا أشكو من أوضارها شيئاً ...

— ولكن زواجك كان ثمرة شهية من ثمار الحب يا إدريانا !

— حقاً ... لقد كان ... ولكنى كنت أرجو أن يكون حباً طويلاً سرمدياً كحب القديسين لله ! وا أسفاه على الأحلام اللذيذة التى كانت ثمرة خيال الشباب المريض ، وقصص الحب الواسع ... وأنت يا لولى ما خطبك ؟ ألم يكن زواجك ثمرة من ثماره المرة ؟

— أنا ؟ كلا أيتها الحبيبة ! لقد تزوجت لأنه كان يجب أن أتزوج . لقد طال عُنوسى ، وكنت أتمنى زوجاً رزيناً محترماً ، فلما وجدته وضمت مخالبى فى عنقه ! »

— آه أيتها العزيزة ... أنتِ سعيدة إذن ! أما أنا ... فلم أسعد بمثل هذا الرجل !

— آسفة كثيراً يا أختاه !

— لا عليك ... لا يهم ... لا تأسفى ! أنت تعلمين يا لولى كم كانت أحلامى خُلبـاً كواذب ... لا ضير ، لقد دفنتها جميعاً ، وإنى لأقف بقبرها أحياناً أندبها وأبكيها . ولقد عرفت الحياة الآن . ولقد عولت على أن أحياها كما عرفتها مجردة عن بهارجها بعيدة من سرابها الذى يخفى حقيقتها عن العالمين !

وكانت تتكلم وقد جلست أمام المرآة الكبيرة تصف شعرها وتكوّمه ، وكان السحر كله ينشر ألغازه من فمها ، فقالت لولى :

— لله كم أنت جميلة يا إدريانا ! مهما قاسيت فلك دائماً سحرك وروعة لفتاتك !

— حسبى هـذا من دنياى الخبيثة يا لولى ! حسبى ألا أصبح قبيحة شائهة فأفقد مع شبابى شعورى بكرامتى ... ولكنك يا أختاه تذكرين جمالى دائماً ، ولا تذكرين أنك كنت زهرتنا جميعاً فى صباك ! أنا ؟ أنا جميلة ؟ !

— لا ... لم أرد أن أقول هذا ، ولكنك كما كنت دائماً ... أنت المخلوق الفاتن الذى لا يمكن وصفه ، ولا تزالين إلى اليوم هذا المخلوق نفسه ! لقد افتتن أنطونيو بكليوباترة ، وكليوباترة هى مخلوق فاتن مثلك ، وفى الدنيا اليوم حسان فواتن مثلها ، بيد أنى لا أحسب أن فيها من هو مثل أنطونيو .. إنك لغز يا إدريانا ... وليس أحمق من الرجال فى استكناه ألغاز الجمال ! »

فتبسمت إدريانا ابتسامة موجمة وقالت : « أنا ؟ أنا لغز يا لورا ؟ أبداً ... بل أنا امرأة كسيرة القلب مهيضة الجناح ، فقدت أحسن أمانيها وأعز مُثلها ، وتحاول ما وسعها أن تكتم فى أعماقها خيبتها وأحزانها وسر بلواها ... فإذا باحت به لك ، فهى واثقة أنها تنقل سرها من قلبها ... إلى ... قلبها ... أى قلبك . ولقد شكوت إليك بثى ، وما يزال لى رجاء إليك ... فلقد ذكرت لك أن زوجى ليس له ما لزوجك من وقار واحترام ... إنه ... رجل ... لا يملك حِلمه إذا شرب ، بل إنه ليفقد توازنه ، فيبدو حيواناً خبيثاً ، فهل تمدينني ألا تشجعيه على كؤوسه يا لولى ! إنى يؤلمنى أن أفضح فى آلامى

فتكون ملهاة لغيرى ... فهل أنت فاعلة ؟ ...

— أوه إدريانا ! سأكلم كاود فى هذا ، إن لم يحزنك أن أفعل ... ولكنك تتركين نفسك فريسة للهموم مع ما فى ذلك من الخوف عليك يا أختاه . فهل تعدينني أن تنسىْ أشجانك الآن ...

— أجل ... أعدك ... وسأكتم السر الهائل الذى يمزق قلبى ... سأكتمه ...

— وأى سر هائل يا إدريانا ...

— أجل ... لقد رزقت غلاماً منذ عامين

— بالله ! وهل فى ذلك ما يحزن يا أختاه ؟

— وكيف ، لقد مات منذ ثلاثة أشهر !

— مسكينة ! هذا محزن حقاً ...

— لا ... إنه لم يحزنى أن مات طفلى ، برغم عينيه اللتين ماتفتآن تشمان الحب فى قلبى من أغوار ظلمات القبر ... لقد فرحت لموته ، لأنى خفت أن ينشأ نشأة أبيه ! ...

— إدريانا ... حسبك إذن ... إنك تحرقين بقية نفسك يا حبيبتى ... لقد قدمت إلىّ لترفهى عنك بعض هذه الأحزان ، فابتسمى للحياة وانْسىْ بلواك ... أشرقى أيتها العزيزة وسَلّى فيا مضى لمن هو أرحم بى وبك وبالناس ... ويسرنى أن أذكر لك أن ضيفاً عزيزاً سيغشى منزلنا الليلة وسيتناول العشاء معك ، فهل تأذنين لى فى أن أذهب فأصاح من شأنى يا إدريانا ؟

— تفضلى ... تفضلى يا لورا ... وأرجو ألا تستأنى علىّ

وانطلقت لوللى ... لكنها عادت فى مثل اللمح لتقول : « أوهِ ! لقد نسيت أن أذكر لك أن ضيفنا العزيز هو أحد أصحاب السمو ... هو مهراجا الإقليم المجاور ، وهو رجل مثقف يجيد الانجليزية ، ويلبس ... آه يا إدريانا ... يلبس كنزاً من الجواهر واللآلىء ... أرجو أن تسعدى بلقائه كثيراً ، وأرجو أن يسرك لقاء حاشيته العظيمة ...

انطلقت ثانية ، فلقيت لومارشان يسير بين يدى زوجها إلى غرفته ليبدل ملابسه ، فهتفت بكاود تقول : « كاود ... أرجو أن تأتى إلى غرفتى بعد أن ترى الكابتن غرفته ، فإن لى حديثاً معك »

وعاد كاود ليلاقى زوجته ، فوجدها تنتظره ثمة لتقول له : « كاود ! لشد ما يحزننى أن أخبرك أن ضيفنا لومارشان رجل عربيد ! إنه يشرب حتى يضيع صوابه ! » فيقول كاود فى ربكة وخجل : « لقد بدا لى أنه سكير كبير ! » ثم ينظر فى الأرض ، فتقول له لوللى : « كم أنا فخورة بك يا كاود ! كم أنا فخورة بك ! أبداً لم أرك تضع كأساً فى فمك » فتصطبغ وجنات كاود بحمرة الخجل الساذج ، فتقول له لوللى : « إذن عليك ألا تمكنه من كأس يحتسيها ! وإلا ... » وذعر كاود ، وخاف أن يكون ثمة نذير بعد (إلا) هذه ، ووصلت لوللى حديثها ، فقالت ... « وإلا فانظر ماذا يكون من شأنه إذا غاب عن صوابه وأحدث شحناء بينه وبين إدريانا فى حضرة المهراجا ؟ ! » ... واطمأن الكولونل ، ووعدها ألا تصل يداه إلى قطرة واحدة من الخمر . وكافأته بأن وضعت له زهرة جميلة فى عروته ، فشكرها مستحيياً

* * *

وعجب الولدان المخلدون وهم يهيئون الخوان لم أمرت سيدتهن بألا يضعوا قواريرا لخمر وأكوابها ، وكانوا يضعون منها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ...

ولكنهم كانوا يحيون فى مدينة فاضلة من هذا القصر المنيف ، فلم يبد العجب فى وجوههم وهم يجيئون ويروحون حاملين صنوف الآكال وأكواب الماء الزلال ... ! ولم يكونوا ينظرون إلى المهراجا العظيم بقدر مايدمنون النظر فى هذه الملكة الإغريقية الساحرة : إدريانا ، وهى جالسة وسط الجماعة ماتنبس إلا قليلاً ، وقد عقصت شعرها الجميل فوق رأسها كأنها أفروديت !! وفى الحق ... لقد كانت إدريانا فتنة المجلس ... ولم تشبع عيون المهراجا والحاشية من النظر إليها بقدر ما شبعت بطونهم من الآكال الفاخرة العجيبة ... وكانت عيناها الواسعتان السحريتان موضع فتنة القوم ولا سيما الشباب ذوى الأمانى والأطماع ...

ومضت أيام ، ولومارشان محافظ على وقاره الذى دُبر له أحسن تدبير وأبدعه ، حتى أحست إدريانا أن جانباً من مأساتها ينجاب عن قلبها ، وبدأت تشعر بطرف من السعادة التى افتقدتها طويلاً فلم تظفر بها ... وسرها أن زوجها استعاض عن نشوة الكأس بحميا الرياضة ، وكان رياضيًا بارعاً ، فكان يستيقظ فى البكور فيركب جواده ، ثم يمضى إلى الملعب فيبارى المهراجا فى لعبة الأكر ...

ولم يكن يعلم أحد بالنار التى تأججت فى قلب المهراجا ، والتى أورت لهيبها عينا إدريانا ... لقد ظلت هذه النار المقدسة سرًا هائلاً يؤرق المهراجا العاشق ، ولا يستطيع أن يبوح به لأحد إلا للعينين الحبيبتين اللتين كانتا تنظران إليه فى تيه وعجب ، وهو يقص غرائب أخباره عن أساطير الهند ، ومشاهداته العجيبة خلال تلسكوبه فى أديم السماء وما وقع له فى الأدغال من ملاحم بينه وبين الفهود والنمور والفيلة ... لقد كان يكتم حبه ويقاسى منه مالا قدرة لجبل على حمله ، وكان يعلم أن النجوم التى لا يراها بالعين المجردة هى أقرب من إدريانا المتزوجة على قربها الشديد منه ... ولكن حبه كان يغلى فى قلبه ، فيفور دمه الشرق ، ولا يجد محيصاً من أن يبرد تحت ثلوج القنوط التى كانت تصدمه ... لأنه محال أن يجزى عن حبه بشىء مهما كان حبه عظيماً طاهراً ...

لقد سقطت أزاهير كانت تحملها إدريانا مرة ، فأسرع المهراجا العظيم بكل ما عليه من لآلئ وحلى فانحنى عليها ، وحملها للملكة ... ملكة قلبه ... مع ما فى هذا من وشك افتضاحه ... بيد أنه لم يبال ، بل تمنى لو استطاع فغمر الأزاهير بالقبل وهو يقدمها لسالبة لبه ...

وحان موعد الأوبة ... وانقضت الفترة السعيدة ... وتصرمت ليالى الأحلام ... وكان غداء فاخراً غداء الوداع المؤلم الذى أعدته لوللى لأضيافها ... ولم يكن المهراجا قد برح غرفته بعد ، وكان بابها مفتوحاً قليلاً ، فشهدها تنزل على الدرج وحدها ، فخفق قلبه فى شدة وعنف ، وجعل يحلم — وهو واقف يترنح وينتفض — بهذا الملاك الفاتن والجمال العجيب ، وهذا الشعر الذهبى الذى أرسلته إدريانا يَغْدُو دِن فوق كتفيها ، وهذا الفم الساحر القرمزى الذى خلق للقبل والحب ، وهذا الجسم الفينان الذى خلق لجنة كاملة من الهوى ، وهذا الصدر العاجى الذى خلق للضم والعناق ... ... ثم أوشك المهراجا المسكين أن يهبط وراء معبودته ، لولا أن اغرورقت عيناه فجأة ... فارتد صَعِقاً ليكفكف عبراته ، وانحط على أريكة قريبة وجعل

يتمتم ويقول : « وا أسفاه ! الجنس ! الدين ! القانون ! كل أولئك فواصل تحول بين الرجل والمرأة أشد مما يحول بينهما الله ... وأمنا الطبيعة ... ! »

وطفق يبكي كالطفل ... ولا يد له في شيء ...

* * *

وآب المهراجا إلى ملكه ... وجلس القوم إلى غدائهم مرة ، وبرزت بنت الشيطان على الخوان من جديد إذ لم يعد داع إلى تحريمها بعد إذ ذهب المهراجا. وجلس كاود بجانب لومارشان يردعه ويكبحه ، ولا يسمح له أن يضيع حلمه ويذهب وقاره بين الكأس والطاس ... ثم نهض النسوة ، وذهبن إلى الصالة الكبرى ، ليأخذن في رقصة جميلة اقترحتها إحداهن ... ولم يمض وقت طويل حتى سمع ضجة دخل على أثرها المهراجا المتبول بكل جواهره ولآلئه تحف به حاشيته العظيمة العجيبة ... وكان بعض خدمه يحمل عرشه المصنوع من الذهب الخالص ، فوضعوه لسموه في ركن من أركان البهو ، حيث استوى عليه ، وراح يتفرس في الراقصات ، حتى إذا رأى إدريانا سمرت عيناه في طيفها الأثيري ، ولم تريما عنها ... ثم أقبل الرجال فحيوا المهراجا وحياهم ولم يكن غريباً أن يرتبك كاود ... ويسقط في يديه

ونهض المهراجا من عرشه ، ولم يبال أن يقترب من الراقصات ليملأ قلبه وعينيه من ملاكه الحبيب ، وطمع أن تمسه مصادفة بطرف ثوبها ، أو بالوردة الكبيرة الحمراء التي تزين صدرها ... أو أن تلقى عليه ظلال شعرها الذهبي ، أو أن ترمقه بنظرة من عينيها السحريتين ... وما كاد يفعل حتى رأى ضابطاً صغيراً يدنو من أدريانا ، ويسر إليها بكلمات فيمتقع لهن وجهها ، وتغادر المرقص من فورها مع الضابط ... ولا يبالي المهراجا أن ينطلق وراءهما ليكتشف السر ، ولا يبالي أيضاً أن تمتد إليه الأبصار من كل صوب لترى ما ذا يريد ... وتدخل إدريانا غرفة الطعام مع الضابط الصغير فترى زوجها ثملاً نشوان ... وقد شرب قارورة بأكملها من الخمر التي تسكر كأس منها أضخم فيل من فيلة الهند ، وأوشك أن يأتي على زجاجة أخرى ... وتجد زوجها المسكين قد ألقى ذراعيه ورأسه على الخوان ، وأخذ في شخير منكر ...

وتذهل إدريانا ... وتشير إلى الضابط فيتقدم إلى زوجها فيحتمله ، بينا زوجته تقول :

— رتشارد ! أتنام هنا ؟ هذا لا يليق ! ماذا تقول لولي وماذا يقول زوجها وماذا يقول الضيوف؟ قم ! استيقظ ... إصعد فنم في غرفتك لتستريح ...

ويقول الضابط الصغير : « هلم يا كابتن ... إصح ... هذا لا ينبغي ! ... »

ويصحو الكابتن الثمل ... ولكنه بدلا من أن يصعد لينام ... يقف كالشيطان ويلكم زوجته التاعسة بقبضته القوية الجبارة لكمة ... تلقيها على الأرض ... مغشياً عليها ...

وهنا يغلي الدم في رأس المهراجا ، وينقض كالصاعقة على الزوج البهيم ، فيقذف به على الأرض وينشب في عنقه أظفاره ، ويوشك أن يزهق روحه ويخمد أنفاسه ... ويجري الضابط ، ويقبل مع كاود ، كاود الدمية ... الذي ينقض بدوره على المهراجا فيحتمله بين ذراعيه ، وينقذ الرجل منه ، ويقول : « ما ذا ؟ ألا ترى إليه ثملا يا صاحب السمو ؟ كيف تقاتل رجلا لا يملك أن يدافع عن نفسه ؟ إنك لست جباناً ولا سفاحاً ! ... » ثم أمر الضابط أن

يستدعي زوجته لوللى ... ونظر بعد ذلك إلى المهراجا بكل ما فى عينيه من نبل عسكرى ، وأنشأ يقول : « إنك ضيفى يا صاحب السمو ، فاغفر لى ما صنعت يداى معك ... بيد أننى عجبت كيف تعارك تملاً ! » فقال المهراجا وعيناه تتقدان غضباً : « لقد قتل الحيوان زوجته ! » فقال كلود : « عفواً ياصاحب السمو ! إنك أحد رعايا الإمبراطورية ، وليس هذا من شأنك ! وليس لك أن تحمى إنجليزية ولا سيما من يد زوجها ... معذرة ... إنك لا شك تعرف كل ذلك تمام المعرفة ... ووجم المهراجا قليلا ، لكنه انحنى انحناءة خفيفة ، ثم غادر البهو وعاصفة من الألم تزعزع قلبه وتشتعل في عينيه ... ثم أقبلت لوللى فانحنت على صديقتها ورفعتها من فوق الأرض ولم يملك المهراجا أن ينظر خلال الباب ليرى إلى وجه معبودته الأصفر الممتقع ، ووردتها الذابلة المنتثرة

وحملت إدريانا إلى غرفتها وهى لا تكاد تعى ، فباتت ليلة ليلاء طويلة الآلام موصولة الأحزان ، ثم أصبحت وبها من العلة ما يوشك أن يقضى عليها

وانطلق كلود إلى حجرة لومارشان فأيقظه ، وقال له وهو عابس ثائر :

— كابتن لومارشان ! زوجتك تشكو من علة شديدة ! ... لقد سلكت أمس سلوكا شائناً لا يليق بجندى بريطانى ... إحمد الله أنك لست فى فرقتى ! يا للعار ! إنجليزى يضرب زوجته ! وأمام مهراجا ؟ فماذا يظن الرجل بمدنيتنا ؟ لقد كاد يقتلك لولا أن أنقذتك من قبضتيه ! على أنك تعلم أنه ضيفنا وهو ذاهب اليوم ، وقد كلمنى فى أمرك ، وهو يريد أن يراك قبل أن يرحل ! »

— لا ... لا شأن لى به ... ولن ألقاه حتى ينزل به القضاء ما يستأهله ... الوغد !

— بل أنت الذى يُنزل بك القضاء ما تستأهله إن أبيت ! على أنه يبدو لى أنك تخشى أن تلقاه ... وإنى أقسم لك بربى أننى لن أسمح لبريطانى أن يبدو أمام الهنود جباناً كما تريد أن تفعل

وبرّق الكولونل عينيه ، وراح يفتل سُبالَىْ شاربه ، وفى صدره ثورة من الغيظ جامحة ... فقال الكابتن :

— حسن ... أين هو هذا المهراجا ؟

— هو فى الجناح الخاص به ... وحده ... ولا بأس إذن من أن أخبرك أنه يريد أن يعتذر لك

فما سمعها الكابتن حتى ضحك وبدت نواجذه ، ونهض من فوره للقاء المهراجا ... ونظر إليه الكولونل نظر المغيظ المستهزئ ، وجمجم فى سره يقول : « يا وقح ! مسكينة تلك الطفلة البائسة إدريانا ! مسكينة فى مُثلها العليا التى تمخضت عن هذا الفشل ! ... تعالى يا لورا فاشهدى النموذج العجيب الذى كنت تشرئبين إليه ، وتتخذينه صنما لأحلامك ! هلمى لتحمدى الله على ما وهبك ! » . وفى الحق لقد كانت فرصة عظيمة للكولونل الذى كان يستكين لزوجه ، برغم ما كان يشعر به من الاستخذاء فى صميمه بسبب ذلك ، أن يفكر فى عجب لوللى وكبريائها ... وها هو ذا قد جلس يبتسم لهذه الفكرة ، وينظر إليها تتأرجح خلل الدخان الذى يصّاعد من لفافته ، وينقذف من أنفه وشفتيه كما ينقذف البخار من محبس القطار !

واستأذن الخادم سيده المهراجا للكابتن فأذن له ، وكان هذا يجلس على كرسي كبير ، ويطل من نافذة مكشوفة على الحديقة اليانعة . فلما أحس

بالانجليزى خلفه أومأ برأسه إيماءة هينة ، ولم يقف ليحييه ... فارتبك لومارشان ولم يدر ماذا يفعل ، ثم بحث عن كرسى ليجلس عليه فلم يجد ، فزاد ارتباكه وتضاعفت حيرته ... وكان فوق منضدة الوسط طاس به أزهار ناضرة تملأ هواء الغرفة بعبقها العطرى ، فانحنى الجندى فوقها يتشممها ، ويدفن فيها حياءه . وفى كل خطفة عين يتجه ببصره نحو المهراجا ... الذي تركه هكذا دقيقتين أو نحوهما ، ثم التفت إليه فجأة مستديراً فوق كرسيه وقال :

أيها الكابتن لومارشان : أقدم إليك اعتذارى عما فرط منى من مهاجمتك أمس إذ أنت فى غير وعيك ... وذاك لأننا نحن الهنود ، لا سيما من هم فى طبقتى لم نعتد شرب الخمر ، لذلك لا نعلم من عقابيلها فى ألبابكم شيئاً ... وقد فطنت إلى غلطتى بعد أن عرفت ذلك ، ولهذا فقط أعتذر »

وهنا ، بلع الكابتن ريقه ، ورُد إليه قليل من ذهنه المُشرَّد ؛ ثم وصل المهراجا كلامه فى نفس اللهجة التي ابتدأ ، وبنفس الأسلوب : « إيه يا كابتن؟ هل تطلب ترضيةً أخرى ؟ وهل بحسبك ما اعتذرت به لك ؟ » وكأنما فاء الانجليزى إلى خيلائه فتذكر أن محدثه الهندى ، وإن يكن راجا عظيماً ، إن هو إلا أحد العبيد الذين لا يصح أن يُساموا الشرف الانجليزى ممثلاً فى أحقر جنودهم ؛ فأخذ يفتل سُبَالىْ شاربه ، ثم قال بأنف شامخ ، وخدّ مُصعَّر : « أجل ، قبلت اعتذارك ! » وطارت العبوسة الهائلة التي كانت تُرنّق فوق جبين الراجا القطب ، ولمع فى عينيه برق خاطف ، وهتف بالانجليزى المتعجرف يقول : « والآن يا كابتن

لومارشان : ها نحن هنا ندّان فريدان ، فهل لديك الشجاعة الكافية التى تلقانى بها كخصم شريف يوده لو حطم رأسك ، وزلزل كيانك ، لينتقم لهذه المخلوقة الضعيفة الحسناء ، التى لطمتها فى موضع العزة ، ومكان الكرامة الإنسانية ، فانطرحت فوق الأرض تتلوّى وتئن وتتوجع ، ليلة أمس ؟... مالك تنتفض هكذا ؟ ... آه ... إنها زوجتك ! وأنت إنجليزى ، وهى إنجليزية ، ولا حق لهندى مثلى فى التدخل بينكما ، بَلْهَ حماية زوجتك منك ! وهـذا هو قانونكم ! » ثم أرسل الراجا آهة عميقة هائلة ، مازالت تعصف بالكابتن الواجم حتى عرف أنها انطلاقة الحب ... ولكن الكابتن لم يُحر جواباً مع ذاك ، بل ظل بارداً كالثلج ، جامداً كالحديد ؛ وانطلقت ألف فكرة تهجس فى قلب المهراجا ، فهب من كرسيه العاجى ، وطفق ينتفض ويقول : « أواه ! أواه ! أيها الانجليزى المتعجرف الصَّلِف لو استطعت أن اشترى منك زوجتك الجميلة الرائعة لأصونها عن البهيمية المتأصلة فيك ! إذن لنزلت لك عن نصف أملاكى وجواهرى ! ... إننى لو استطعت أن أضمها إلىّ ، وأخبئها فى قصورى ، بدافع الرحمة والإنسانية ، لملأتم الدنيا صراخاً وعويلا ، وجعلتم تذموننا وتشتموننا ، وتقولون كدأبكم ... الهنود وحوش ... الهنود غير قابلين للتمدين ، يجب أن يظل الانجليز إلى الأبد سادة الهند ... ! واأسفاه ! إننا شعب مغلوب على أمره ، وأنتم أيها الانجليز تحتقروننا ... ولكننا نستحق ، فقد ألهتنا صغائرنا عنكم ، ورسفنا فى قيود المذلة التى وضعتموها فى أرجلنا خلاخيل من ذهب أجيالاً بعد أجيال ، ودفعنا حكمتنا بأيدينا فألهيتمونا ببعث البدع والضلالات ،

وتفشية الشعوذات والخرافات ، وقلتم إنها دين الشعب ، ومذهب الغالبية ، فأنتم لها حماة وعنها ذادة ، وبذا ضعفت الهند ، فأنتم تحكمونها بضعفها ... ومن يدرى ؟ فقد تستيقظ الهند يوماً فتُسْحِتَكم[1] وتقطع دابر الذين ظلموها منكم... ولست مع ذاك أنتقص من دولتكم ، فأمتكم أعظم الأمم ، وانجلترا سيدة العالم .. ولكن مثلك هو من غير شك عار عليها ، ولطخة دنس فى مجدها ... ولم ذاك ؟ إنك وأمثالك تشترون البغايا الهنديات لتقضوا منهن أوطاراً لئيمة ، وتنسون نساءكم ، وتطّرحون زوجاتكم ... وليس بحسبكم هذا ، بل تفضحونهن بين الناس ، وبين الهنود ، كما فعلت بامرأتك أمس ! ... ولكن ما لى ولهذا كله ؟ وفيم بعثرة الكلمات مع دنس مثلك ؟ لقد اعتذرت لك يا لومارشان ، وانتهى ما بيننا ، فهل تعدنى قبل أن نفترق إلى الأبد ألا تهين زوجك على الصورة التى رأيت منك أمس ! إنها جميلة أيها الرجل ، وهي بتدليلك لها أولى ، وبمحبتك واحترامك أجدر ، فلم تعاملها تلك المعاملة التى تجعلها تأسف أشد الأسف على أن تزوجتك ؟ الحق أنه لا شأن لى فى كل ذلك ... ولكن ... إنس ما بيننا الآن من فروق ... إنس أننى هندى لا شأن لى ، وأنك إنجليزى لك شأن أى شأن ... إنس الجنس ، إنس الديانة ، إنس النَّعرة والعصبية ... إنس كل أولئك يا لومارشان ... واذكر أننا من صنع إله واحد سرمدى أحسن كل شىء خلقه ... إذ كر هذا فقط حين أطلب منك أن تعدنى وعد حر جدير بشرف الجنود ، أنك لن تعود إلى مثلها ! ! »

(١) تستأصلكم

وكان المهراجا يتكلم فى طلاقة ويتدفق فى بيان ساحر ممتلئ بحرارة الإنسانية والمحبة . ولما انتهى من حديثه بسط يده إلى الكابتن ليقاسمه ، ولكن الكابتن صعر خده ، وشمخ بأنفه ، وضم ذراعيه إلى صدره فى أنفة وكبرياء وقال :

— « ألا ما أجل ما تطلب أيها الهندى ! من أنت حتى تطلب ذلك إلى ؟ »

فصرخ المهراجا صرخة مدوية ثم قال : « إنك مسيحى ! وطالما ذكروا لى أن المسيحية هى دين الإخلاص الصحيح وملة المحبة والسلام والنقاء ... على أن لنا نحن الهنود ملة أخرى غير المسيحية ، وفى ملتنا أن من عاهد على شىء وحلف عليه ، فليس إلا أن تبر يمينه ، فلا يتحلل منها ، أو يرد موارد الهلاك ! أفليس فى ملتكم شىء من هذا ؟ »

وتبسم الكابتن ابتسامة حمقاء جاهلة ، ثم نفض تراباً من كتفيه ، وقال : « لا ... » وما كاد يقولها حتى امتشق المهراجا خنجراً هائلاً من حزامه وشهره بشدة وحنق ، ورفع يده ليغمده فى صدر الكافر الذى أراد أن ينكر فضيلة المسيحية عطرسة وعناداً ... ولكن ... لقد فر الجبان أرشق ما تفر النعامة من مطاردها فى الصحراء ... وأغلق الباب دونه ... فابتسم المهراجا وأغمد الخنجر ، وقال وهو يجلس على كرسيه فى صوت متهدج : « إذهب أيها اللعين ! »

وبعد ساعتين كان المهراجا يستأذن مضيفيه الكريمين لوللى وزوجها فى الانصراف ، وقد ودع بما يليق به من حفاوة وتبجيل ، وازدحم الجميع حوله يحيون ويُبَيّون ... إلا ... إدريانا ... التى بلغها أن المهراجا يوشك أن يرحل ، فنهضت من

سريرها ضعيفة موهونة ، وأغلقت باب غرفتها ، ثم قصدت إلى نافذة تطل على الخارج من القصر وحديقته الفيحاء ، ففتحت أحد مصاريعها ، ثم وقفت تَتَنَظَّر ، حتى إذا مر المهراجا ، اغرورقت عيناها فجأة ... وخفق قلبها بشدة ، حينما اتجه بكل وجهه وعينيه وروحه ناحية نافذتها . فلما رآها ، ولمح الدمع ينهمر على خديها الشاحبين ، زلزل قلبه وارتجفت أعصابه ، وعرف السر الرائع اللذيذ ... وانتقلت من عينيها إلى فؤاده أولى رسائل حبها ... أو ... شكرها ... أو إعجابها !

* * *

ولكن ماذا يجدى المهراجا أنها أعجبت به ... أو أنها أحبته ؟ ! لقد فسر هو القضية ، وساق كل كل براهينها ! فهو هندى ، وهى إنجليزية ... وهو برهمى ، وهى مسيحية ... وهو عزب ، وهى متزوجة ... وهو عبد برغم اللآلئ الثمينة التى تزين صدره ، وتثقل كاهله ... وهى حرة لأنها من نساء الإمبراطورية ... فأى مطمع له فيها ..؟ لا شىء !!

ما كان أبدع البدر الهندي فى هذه الليلة ! وما كان أعبق الهواء البرهمى بشذى النوار الجميل الممتد فوق سطح قصر المهراجا ! وما كان أشبه هذا السطح الجميل بحدائق بابل المعلقة ! وما كان أشبه القمر السافر الساخر بقنديل الزيت معلقا فى العلو وسط قبة السماء ، وهو يترنح فى الأثير كالسائح الكسول الذى أعياه المسير عبر الصحراء ! لقد كان يغمض أحياناً ، ثم يصحو ، ثم يغمض كأنه الحبيب الذى يُفَتِّر عينيه وما فيهما من نعاس !

لقد كان المهراجا العاشق يجلس وحده تحت هذا الكون الهادئ ، وإلى جانبه تلسكوبه الكبير الضخم ، وقد انبطح تحته يقلب عينيه فى العوالم والدُّنى المتنائية التى لا تتناهى ... ولا يزعجه أى شئ حوله ... فقد سكن كل شئ ، واطمأن كل شىء ! وليس شئ يلفت النظر إلا هذه العمامة الكبيرة التى جعلت ماستها الثمينة تعكس أضواء القمر والنجوم ، وإلا هذه العقيقة الحمراء كالدم تتألق فى خاتمه ... وهكذا جلس المهراجا يفكر فى أسمى ما يفكر فيه البشر ... فى الحب ... ولكن فى أسلوب ليس كهذا الأسلوب الذى يفكر به الناس ... ثم جعل يتمتم فجأة ويقول :

— ينبغى ألا أخفى هذا الشئ العظيم عن نفسى ! حقاً إنه ذنب كبير ، ونقيصة أى نقيصة ، ولكنه مع ذاك شرف وجلال ومجد ! إنه ذنب ووزر أن أحب حسناء كان لا ينبغى أن يعلق بها قلبى هكذا وعلى هذه الصورة . لقد مزجتها بدمي وروحى ، وجعلتها القديس الذى يخفق بالحياة بين جنبى ؛ بيد أنه شرف ومجد وجلال أن أموت بهذا الحب ، فأحبها إلى الأبد ، وسيقتل الموت كل ما فى ولعى بها من دنس ... لقد فطن زوجها إلى ما بيننا وربما أخذها به . ولقد لمحت هذا فى جبينه المقطب واستوضحته فى عينيه المغيظتين . فإذا فعل فستحزن إدريانا ، وسأكون أنا الذى تسببت لها فى هذا الغم الذى يشبه الفضيحة ! فكيف أحتمل الحياة مع هذا ؟ وأنا إذا عشت فسيظل غرامي بها مختلطاً بدمى ، ورغبتى فيها ناشبة أظفارها فى قلبي ، وهواها ساريا فى أنفاسى . وسيكون فى ذلك كله إيلامها ، وتوجعها ؛ أما إذا مت فلسوف تستعظم حبي ؛ وقد تبكي مرة من أجلى ، فتكون دموعها ملائكة رحمة لى ، تقف

في الهواء لترفرف حول رمادى ! وفضلاً عن ذلك فالحياة الحب ، وهى بدونه موت بغيض ، وإذا حييت فلا بد أن أذكرها دائماً ... أذكر ماستى الكبرى ، زنبقتى العزيزة البيضاء ! وسأذكرها دائماً فى ملكية زوجها الظالم الذى لا يستحقها ... وسيكون فى كل ذلك آثام وأوزار لى ... فلم لا أتخلص من هذا ، وأفكر فيها فى مكان آخر أكثر طهارة وأشف نقاء ... ؟ إن الحب لغز عميق مضل لا يستطيع تفسيره إلا الله ! ولكنى أفسره أنا الآخر على قدر استطاعتى ... على أنه إذا أحب أحد من الناس وأخلص فى الحب فسيحب مخلصاً إلى الأبد ... حتى بعد الموت ! وليس يخضع الحب لقانون أو عرف أو دين ! بل ليس يغيره شيء من هذا ؛ ولا يخفف سورته شيء من هذا .. بل .. ولن يطفئ ناره المتأججة هنا .. إلا الحبيب ، أو .. الموت ! وبعد الموت ماذا عساى أجد ؟ ! أجدنى إما مع أشجاني وآلامي أو ... مع الله ! » قال هــذا ، وكان يمسح بيده المرتجفة على موضع القلب من صدره ! ورفع وجهه وراح يقلب عينيه فى القمر الساحر والنجوم المتألقة ثم قال : « أوه ! أيتها الدنى التى لم تُكتشف ، ويا أيتها العوالم التى يُرَجِّم الناس بشأنها ! ما أملأك بالحياة ! وما أكثر ما وراء الستار الكثيف الذي يحجب أسرارك عنا ! إنه لا يعرفك إلا الأرواح الهائمة الطليقة التى تسبح فيك بعد الموت ، والتى تجد فيك الحب الصحيح والسلام الدائم !

يا ربى ! يا إله الجميع ! أستودع الحياة بين يديك وفى أعماق الوجود ، لأصعد إليك ... ولألقاك ! »

* * *

لم تكن إدريانا تحسب أن المهراجا سيشرب السم من الخاتم العقيق الكبير ، بل كانت تحسبه يصلى صلاة هندية ، فلم تجرؤ أن تقترب منه ...

وكانت قد انسرقت فى ظلام الليل بعــد أن عرفت ما به ، وعلمت طريق قصره وسط الريف الهندى من صديقتها لوللى ... فلم تبال بشىء ، ولم تأبه لشىء ... بل رحلت إليه ... ربما على فيل كبير أبيض ... لتشكر له ... ولتثنى عليــه ... ومن يدرى ؟ ! فربما كان فى تصميمها أن تمنحه قبلة ...

وشرب الراجا السم ... وصمت إلى الأبد !

وتقدمت إدريانا لتشكر له ... فوجدته قد أسلم الروح ...

وكانت قد سمعت كل ما قاله عن الحب ، وعن الموت ، وعن السماء ، فجلست بجانبه تبكى ... وتذرف فيه دموعها ... لأنهــا وا أسفاه ! ! وجدت فيه مثلها القديم الأعلى

* * *

— لا تذهبي يا سـيدتى ... الوصية ... لقد أشهدنى على الوصية !

— أية وصية يا هذا ؟

— لقد أوصى لك بهــذا القصر إذا فكر زوجك فى أن يهجرك . وأوصى لك بضياع ولآلئ ...

* * *

وهجرها لومارشان ... وعاشت فى قصر المهراجا ... ولكن ... كالراهبة ... وكانت لوللى تختلف إليها ، ومعها زوجها (الدمية) كلود أنسللى

دريني خشبة